PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2023) 60(2): 1158-1172
ISSN: 1553-6939

Questioning the problematic of the critical term The term poetic image is a model

sata nedjim

PhD in Contemporary Arabic Literature , College of Arts and Language , Department of Arabic Language and Literature

Mohamed Kheidar University Biskra - Algeria

Email / **sattanad@gmail.com**

مُساءلة إشكالية المصطلح النّقدي * مصطلح الصورة الشعرية أنموذجا*

ملخص:

يروم البحث تطارح إشكالية المصطلح النّقدي العربي وبيان علاقته بنظيره الغربي، ومن ثَمَّ الكشف عن منحى مصطلح Imagination ذو الأصول الرمزية/ الغربية، والعمل على أرضنته في البيئة النّقدية العربية ورصد المصطلحات البديلة له من قبيل مصطلح الصورة الشعرية، حيث أدى هذا الأخير إلى نزالٍ نقدي كاد يُنبئ عن إسهال مرضي فتاك اجتاح الساحة النّقدية العربية على الرّغم من أنه – أي مصطلح الصورة الشعرية– رديف المصدر الصناعي الحامل لدلالة العلمية.

وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي القائم على آليات التّحليل والاستقراء، كما طرح البحث عدة إشكالات نوجز منها: هل الأزمة التي مرّ بها المصطلح النّقدي العربي خلال اتّصاله بالآخر/ الغرب حقيقية أم مفتعلة؟، هل يعدّ مصطلح الصورة الشعرية المصطلح الوحيد الذي بإمكانه أرضنة / أقلمة مصطلح IMAGINATION.

الكلمات المفتاحية: إشكالية المصطلح؛ المصطلح الغربي؛ المصطلح العربي، التّرجمة؛ التّبيئة؛ الصورة الشعرية؛ الصورة الفنية؛IMAGINATION؛ الفوضى المصطلحية؛ الثراء المصطلحي.

Abstract:

The research addresses the problematic of the Arabic critical term and its relation to its Western counterpart, and then reveals the trend of the term poetic image that has symbolic/Western origins,

works to adapt it within Arabic terminology, and monitors alternative terms for it such as the term artistic image, as the latter led to a critical debate.

The research relied on the descriptive approach based on the mechanisms of analysis and induction. The research also raised several problems, including: Is the crisis that the Arab critical term went through during its contact with the other/the West real or fabricated? Is the term poetic image the only term that can contain the term image artistic?.

Keywords: Terminology problem; foreign term; Arabic term; Translation; poetic image; artistic photo; Terminological chaos; Terminological richness.

1. مقدمة:

تُثير إشكالية المصطلح النّقدي ما يُعرف بأزمة فكر الأزمة كون الذين توخوا الإفراج عن هذه الإشكالية زادوها تعتيما وغموضا فأضحت من قبيل الثنائية الضّدية، فهي كمصطلح المعجم يحمل لغويا معنى الغموض واللّبس والإبهام، في حين لا تنفك دلالته الاصطلاحية عن الشرح والتّفسير وإزالة الغموض، كذلك إشكالية المصطلح تتضمن مصطلحين متضادين؛ ينم مصطلح الإشكالية عن وُجود التباس يقتضي البحث والتّحري، أما مصطلح **المصطلح** فيحمل دلالة الاتّفاق.

وبما أنّ إشكالية المصطلح أضحت ظاهرةً صحيةً لدى الكثير من الدّارسين، يُمكننا إذن الاهتداء إلى مخارج لهذه الإشكالية بعدّها الاتّفاق والإقرار على وُجود إشكال مُصطلحي مع إمكانية التّعايش معه، ويتجلى ذلك في مصطلح إشكالية في حدّ ذاته، فهو قبل كلّ شيئ رهين صيغة المصدر الصناعي دلالة على العلمية، فالإشكالية إذن إشكالية علمية لديها ما يُبررها ويقتضي وُجودها من ذلك فتح المجال للدّاريسن كي يُسايِروا مُختلف التّطورات اللّغوية والمعرفية على الصعيد المحلي والعالمي، فمن المعروف عن الإنسان المعاصر والذي يُسميه غدمار بإنسان القطع الغيار شديد الارتباط بالمادة، هذه الأخيرة سريعة التّطور والتّحول من حيث الّشكل/ المصطلحات / أزياء الفكر... .

ففي خضم هذه المتغيّرات العصرية وَجدت إشكالية المصطلح مَطْمَحَهَا النّقدي كونها خير بديل للمجمعات اللّغوية التي تتوخى قواعد اللغة واختباراتها ولا تراعي الجانب التّداولي المتمخض عن تطورات العصر.

وعليه تمكّنت الجهود الفردية للمصطلحيين العرب من الخلّق المصطلحي، وليس أدلّ على ذلك من مصطلح الأسلوبية، التّفكيكية، البنوية، الصورة الشعرية، الكلونيالية مصطلحات يستعصي على الإجراء الإحصائي عدّها وكُلّها تُنبئ عن إمكانات التّحكم في الجهاز المصطلحي العربي، كذلك أسفرت الدّراسة الإحصائية عن وُرود جل المصطلحات المعربة والمترجمة والمُنتَجة وَفق صيغة المصدر الصناعي دلالة على العلمية.

علاوة على ذلك ازداد الجهاز المصطلحي العربي تطورا وتخصصا مع ظهور النّاقد المصطلحي على حدّ قول توفيق الزيدي الذي يضع المصطلحات ويُوجهها، وبهذا الصنيع استطاع المصطلحيون العرب تفكيك المقولة الرائجة "لا مشاحنة في المصطلح" (علي، 2010، صفحة 42) والتي شجّعت فكرة استهلاك المصطلحات الغربية دون المساس بميكانيزماتها، حيث يُبرّر دعاة هذا التّوجه التّزمتي نواياهم المُبيّتة بأنّ المصطلح النّقدي وليد الحقل الذي أنتجه وبالتّالي فهو غير قابل للغراس حتى ولو توفرت له الشروط اللازمة.

وردّا على هذا الادّعاء الباطل قُمنا بدراسة بعض المصطلحات التي انتقلت لدى الغرب من حقل معرفي إلى حقل آخر مُغاير له تماما ومع ذلك صَلُح الغراس وأنتج المصطلح دلالة جديدة ولقيت إقبالا من لدن المتلقين الغربيين ويأتي على رأس هذه المصطلحات الفولكلور Folklor حيث انتقل من حقل الأنثربولوجيا إلى حقل الأديان / علم النفس/ التّاريخ / الأدب دون أن يُولّد غموضا يُذكر.

إذا كان انتقال المصطلح النّقدي إلى حقل معرفي مغاير له تماما إجراءً عاديا، فكيف به والحال كذلك إذا كان الانتقال ضمن الحقل نفسه؟، كالذي حدث عند العرب حيث قاموا بنقل مصطلحات أدبية / نقدية غربية إلى حقل الأدب والنّقد العربي مع اختلاف اللّغة فقط.

الظاهر أنّ الأزمة التي خلقت إشكالية المصطلح مردُّها إلى دوافع ومؤثرات آيدلولوجية غربية بحتة، فهي أحد إفرازات العالمية الثقافية المُسيطرة، أي ما تدين به ثقافة المُصَدِّر للمستورد وفق

ما أملاه دفتر الشروط، فقد حدث مثل هذا التّلاقح والاحتكاك بين الأدب العربي وغيره من الآداب اليونانية والفارسية... في حقبة زمنية ماضية وتمّ على إثرها جلب وتبيئة عدد وافر من المصطلحات في مختلف فروع المعرفة (اختلاف الحقول المعرفية واللّغوية)، ولم يحدث حينها عراك نقدي ساخن كالذي حدث اليوم؟، أم أنّ العرب كانوا آنذاك مصدر تفوق، واليوم غير الأمس " فهذا الاحتراز هروبا من ركوب موجه الاستهانة بالأمة العربية التي غلبت على بعض مفكرينا في الآونة الأخيرة؛ نتيجة للإحباطات التي تمرّ بها الأمة في مناحٍ شتّى من مناحي حياتها الفكرية والثقافية والسياسية التي تُعلق عليها عادة جلّ المشكلات" (علي، 2010، صفحة 32).

بناء على ما تمّ عرضه يروم البحث تطارح إشكالية المصطلح النّقدي العربي وبيان علاقته بنظيره الغربي من خلال وضع مصطلح الصورة الشعرية على محكّ النّقد العربي ورصد البدائل المصطلحية الموازية له، والنّظر في ما مدى قدرته على استيعاب محمول المصطلح الغربي IMAGINATION، وذلك وفق المنهج الوصفي القائم على آليات التّحليل والاستقراء، وقد اقتضى البحث طرح جمام إشكالات نذكر منها:

هل الأزمة التي مرّ بها المصطلح النّقدي العربي غداة اتّصاله بالآخر/ الغرب حقيقية أم مفتعلة؟، هل يُعد مصطلح الصورة الشعرية المصطلح الوحيد الذي بإمكانه أرضنة / أقلمة مصطلح IMAGINATION؟، وهل تَعَدُّدُ المصطلحات الموازية والبديلة لمصطلح الصورة الشعرية يُنبئ عن سوء الطالع الذي مُنيت به الدّراسات الاصطلاحية العربية؟، إذا كان المصطلح يدل على الاتّفاق والتواضع لِمَ الاختلاف إذن؟، أم أنّ تَعدد مصطلحات الصورة الشعرية يوعز إلى الثراء المصطلحي الذي هو سمة اللّغة العربية دون غيرها من اللّغات؟.

2. إشكالية المصطلح النّقدي العربي؛ النشأة والتّطور:

يستعصي على الدّارس تتبع المسار الكرونولوجي لأزمة المصطلح النّقدي ضمن هذه المداخلة المستوفزة، فهي ذات بعد سحيق في النّقد العربي لذا يتوخى البحث حصر الدّراسة في الحقبة التي بلغ فيها المشروع الفكرى الثّقافي العربي أوجّ اتصاله اللامشروط بنظيره الغربي، وهنا

وقعت الواقعة التي لم يكن للنّقد العربي عهد بها، ذلك أنّ التّجارب السّابقة أثبتت تفوق النّقد العربي حيال اتّصاله بالآخر، والانفتاح على علومه والنهم منها بشكل عقلانٍ/ واعٍ بالأبعاد والمضاعفات وخاصة في مجال التّرجمة والاقتراض اللّغوي، أما اليوم فغير الأمس فقد حدث

" للثقافة العربية، وهي تحاول أن تنفتح على الآخر / الغرب في إطار المثاقفة والتبادل المعرفي، أنها – وبسبب الحاجة– وجدت نفسها خاضعة لثقافة مغايرة لثقافتها، بل معادية لها، وبفعل التّأثير تمكن الآخر / الغرب من إحداث نوع من الارتباك في الثقافة العربية، إذ أضفى دلالات مغايرة للمصطلح عن تلك التي كانت له في الأصل، كما قام بخلخلة الدّلالات القارة لبعض المصطلحات، لتهيمن الثقافة الغربية، التي هي مظهر من مظاهر المركزية الغربية على الثقافة العربية (...) هذا هو حال الثقافة العربية إذًا، فهي لم تستطع أن تؤسس لنفسها كيانا تبني به صرحها، فقد هالها ما وصل إليه الآخر / الغرب من تطور في مجال المعرفة، فارتمت في أحضانه متناسية التباين الموجود بينهما، فكان أن قوض هذا الآخر أسس هذه الثقافة، وفرض عليها نموذجه القار" (بارة، 2005، صفحة 294/293).

وعودا على بدء تُمثل خمسينيات القرن العشرين مرحلةً خصبةً / حرجةً في تاريخ النّقد العربي المعاصر حيث عكف فيها النّقاد العرب على تبني مشروع النّقد الجديد الذي أبهر العالم آنذاك بمناهجه النّقدية (الأسلوبية، البنوية، الأسلوبية، السميائية...)، ومن بين فرسان هذه المرحلة الذين حرصوا على أرضنة المناهج الغربية في البيئة العربية نذكر:

" الدكتور رشاد رشدي (أول دكتور مصري في الأدب الانجليزي) الذي ناضل وعارك في سبيل ترسيخ هذه الحركة النقدية الجديدة، عبر كتبه المختلفة (ما هو الأدب، مقالات في النقد الأدبي، النقد والنقد الأبي) (...) وقد آزره في هذه الجهود، وحمل الراية معه وبعده بعض طلبته الذين – وبتوجيه منه– اضطلعوا بتقديم النظرية النقدية الجديدة لدى النقاد الغربيين الجدد، عبر سلسلة كتيبات؛ حيث نشر محمد عناني " النقد التحليلي" عام 1962 عن كلينث بروكس، ونشر سمير

سرحان " النقد الموضوعي" 1990 عن ماثيو آرنولد، كما نشر عبد العزيز حمودة " علم الجمال" عن كروتشي" (وغليسي، 2007، صفحة 58/57).

وبعد أن تشبّع النّقاد العرب المعاصرون من معين النّقد الغربي الجديد راموا مراجعة ما نقلوه فوجدوا الحقول المعرفية والمناهج النّقدية تشتغل عبر مصطلحات مفتاحية، كذلك تبيّن لهم أنّ هذه المصطلحات المفتاحية لم تكن نُسخا مطابقة للأصل بقدر ما كانت بموازاته.

وحيال هذه الأزمة المصطلحية يتجنّد النّقاد العرب بغية تحصيل المصطلحات النّقدية التي تعُزهم في الخطاب.

والحقيقة أن هذه المحاولات الجبارة كانت على شكل جهودات فردية يعوزها التّنظيم المحكم المستند إلى نوادي وجمعيات أكاديمية مما زاد الطين بله، ولا يفوتنا في هذا المقام العلمي التّنويه بالمشروع الغربي الذي يُبادر دائما وأبدا إلى تطارح مستجداته ضمن إطارٍ أكاديمي فعلى سبيل المثال " تتداخل السيميائية (Semiotique) بالسيميولوجيا (Semiologie) تداخلا مريعا في الكتابات الغربية يوحي –في أكثر الأحوال– بأنهما حدان لمفهوم واحد (...) فعلماء العلامات – في مجملهم– كثيرا ما يرادفون بين المصطلحين، ويتساهلون في استبدال أحدهما بالآخر، ولا يتقيدون بما بينهما من فروق، مما دعا خمسة أقطاب السيمائية الكبار (جاكوبسون، غريماس، ليفي ستروس، بنفنيست، بارت) إلى توقيع اتفاق " اصطلاحي" سنة 1968، قبيل انعقاد الجمعية الدولية السميائية، ينص على اصطناع مصطلح (Semiotique) وحسب" (وغليسي، 2007، صفحة 100/99).

هذا ما يفتقر إليه المشروع المصطلحي العربي الذي ظلّ حبيس الارتجال فكان من نتاجه إقصاء النّظام الاشتراكي للمصطلح، فكلّ ناقد يصوغ المصطلحات وَفق مقاسه، كذلك اختلاف المصادر التي تمَ جلب المصطلح الغربي منها أدى إلى تعدّد المصطلح البديل، فعلى سبيل المثال يُعدّ مصطلح " (السميائية) معطى ثقافيا أمريكيا – أساسا– يُحيل على مفاهيم فلسفة شاملة وعلامات غير لغوية، بينما (السيميولوجيا) معى ثقافيا أروبيا هو أدنى إلى العلامات اللغوية؛

والمجال الألسني عموما" (وغليسي، 2007، صفحة 99)، ورغم اتفاق الغرب على مصطلح موحد –كما رأينا– وهو (Semiotique) إلاّ أنّ ذلك لم يكن كذلك لدى النّقاد العرب، فقد انقسموا إلى فئتين غير متكافئتين مصطلحيا ودلاليا، فئة تأثرت بالثّقافة الأروبية فترجمت مصطلح (Semiologie) بـ " علم الدلائل، علم الأدلة، الدلائلية، علم الدلالة اللفظية، الدلالية، الدلائليات، علم الأدلة" (وغليسي، 2007، صفحة 106/105)، وفئة أخرى احتكّت بالمنظومة المصطلحية الأمريكية فترجمت مصطلح (Semiotique) بـ " السيميائيات، السيمائيات، السيمائية، السيميوتية، السيميات، السيامة، السماتية، السيمياء، علم السيمياء، السيميولوجيا؟، الساميولوجيا، علم السيمونتيك علم السيميولوجيا، السيميوطيقا" (وغليسي، 2007، صفحة 107).

أمام هذه القضية الشائكة يقف النّاقد عبد الله بوخلخال ناعيا الموكلين بالجهاز المصطلحي العربي حيث يقول:" إن ضعف التنسيق هو العلامة المميزة بين هذه الجهات والمؤسسات العلمية والثقافية المختلفة، أضف إلى ذلك اختلاف مشارب الأفراد الذين يساهمون في وضع المصطلحات وميل معظمهم إلى الفردية ومخالفة جهود الآخرين" (وغليسي، 2007، صفحة 107) وهو ما يُعرف في علم النّفس بالتعنت الإنحيازي للباحث رغم مخالفة كل الآراء له.

كذلك يجدر بالبحث التّعريج على إشكالية قارة في صلب إشكالية المصطلح النّقدي العربي والمتمثلة في لجوء بعض النّقاد إلى إحياء مصطلحات الموروث العربي وذلك بعد أن أفرغوها من دلالتها القديمة، وأعادوا شحنها بدلالات جديدة يظنون أنها أكثر قدرةً على استيعاب محمول المصطلحات النّقدية الغربية الوافدة، ولا يخفى على الدّارس خطورة هذه المجازفة، ذلك أنّ استنزاف أو تغييب الدّلالة القديمة لأي مصطلح رهان يقتضي تقويض التّراكمات والمرجعيات القارة التي اكتسبها المصطلح خلال مسيرته الطويلة، وهذا ما سيولّد برأينا عدة إشكالات:

أولها: تُعدّ دلالة المصطلح بمثابة جدار مناعة، وبالتّالي فإنّ الدّلالة الجديدة المحقونة للمصطلح سَتَلقى رفضا من طرف المناعة المنوط بها مهاجمة كل ما هو غريب عن حقلها، مما قد يُؤدي إلى حدوث أمر خطير نصطلح عليه بـ:

le terme contre le même، بمعنى Le terme s’attaque à lui- même .

الإشكال الثاني: إذا تمكّن النّاقد المصطلحي من حقن المصطلح العربي القديم بدلالة المصطلح الغربي، فإنّ هذه العملية تحتاج إلى فترة زمنية طويلة حتى تأخذ الدّلالة الجديدة موضعها، وتُهيئ لذاتها تراكمات ومرجعيات تجعلها محلّ قبول لدى المتلقين.

الإشكال الثالث: يزداد الأمر تشابكا وخطورة إذا اختلفت الدّلالة المشحونة للمصطلح العربي القديم بمعنى عدم الإرساء على دلالة موحدة، فيكون من نتاج هذا الإشكال حدوث مضاعفات خطيرة تتمثل في ظهور مصطلحات هجينة؛ دلالتها التأثيلية سلكت مسلكا مُغايرا يصعب تحديد اتّجاهه وما ستؤول إليه، أما دلالتها الحديثة فقد تهاوت كِسفا، وليس أدلّ على ذلك من مصطلح **التّأليف** الموازي لدلالة مصطلح **النّظم** لدى عبد القاهر الجرجاني، غير أنّ بعض النّقاد العرب أضافوا لمصطلح **التّأليف** صيغة المصدر الصناعي – **التّأليفية**– وجعلوه بديلا لمصطلح **Stylistique** وشتان بين هذا وذاك.

إشكال آخر وليس أخيرا: ألا يدل إحياء مصطلحات التّراث العربي على عجز المصطلحيين العرب في ابتكار مصطلحات جديدة تُواكب المصطلح الغربي ضمن سياسة الاحتواء الفعال؟، ألا يُحيل شعار الإحياء على فترة زمنية راكدة هجرها البعد التّداولي؟، أم أنّ الانبهار والانتصار للتراث العربي هو لب الإشكالية؟، وإن كان هذا الأخير صائبا لِمَ لم يَحدث مثيله لدى الغرب، فعلى سبيل المثال أنفق أرسطو جهدا معتبرا في تقسيم البلاغة إلى فنون ومصطلحات قارة تَمثلت في وسائل الإقناع، البراهين، الأسلوب، البناء اللغوي، ورغم أنّ أرسطو قد تضلّع في علم البلاغة ومدّ باعه فيه إلا أنّ ذلك لم يمنع بول ريكور Paul Ricoeur وفان ديك Van Dik من القول إنّ صنيع أرسطو هو أول خطوة في اختزال البلاغة وحصرها.

أضحى القارئ العربي المعاصر في خضم هذه الإشكالية – التي لا نهاية لقرارها– ينفر من الكومة المصطلحية البديلة للمصطلح النّقدي الغربي كنفوره من مصطلحات الدواء الجنيس كونها

توحي بصورة مباشرة إلى فعالية محدودة ومن ثَمَّ عدم تعليق آمال الشفاء على هذا النّوع من الدّواء.

أدى الاتصال اللامشروط بين المشروع الثقافي العربي ونظيره الغربي إلى غرق المصطلحيين العرب في مستنقع جاف لا تُجدي فيه مهارات السباحة نفعا، فقد وقعت الواقعة التي لم يكن للنّقد العربي المعاصر وعي بأبعادها، فمنذ أن أخذ المصطلح النّقدي الغربي في التّسلل إلى بيئتنا العربية راح يحتمي بأبواب موصدة / مُغلّقة تمنع إمكانية ولوج غوره، وإزاء هذه القضية المُستعصية ظاهريا فقط، سعت السّاحة النّقدية العربية إلى تكاتف الجهود وتوحيدها في ما يتعلق بالجهاز المصطلحي الذي تمكّن في مرحلة متأخرة من فكّ شفرات المصطلح النّقدي الغربي فتبيّن أنّه رديف النبات الكلئي أينما حلّ أينع، كما اتّضح والأمر كذلك أنّ موجة الغموض والتّشفير والتّرميز التي انتابت المصطلح النّقدي الغربي فجعلته كطلاسم الكهان مردّها إلى العولمة الثقافية المخاتلة/ المشحون مُصطلحها " بكثير من التضليل والتزييف لوعي الشعوب" (علي، 2010، صفحة 107).

فمن بين تمويهها في مجال المصطلح النّقدي ترويجها لفكرة مفادها أنّ المصطلح النّقدي موجه للاستهلاك ولا يقبل البديل، وأنّه غير قابل للأقلمة والتبيئة، فإما أن تأخذه كما هو وترضى به على حالته وإما أن تتركه وشأنه؟.

وقد تمكن نقادنا من إبطال هذا التّضليل الماكث على كبوة البنية التّحتية مُتخذا منها مشروعا لا أساس له من الصحة، وعليه يجدر بالباحث الأكاديمي تجنب مثل هذه المجازفات الخطيرة المُتشيعة لفكرة التّناسب الطردي بين البنية التّحتية والبنية الفوقية، فإذا انهارت الأولى خارت الثانية، فليس الأمر دوما وَفق هذا التّوجه الإقصائي، ولِمَ لا نجزم قطعا على عدم التّناسب بين البنية التّحية والبنية الفوقية ويكون مردّ هذا الفارق إلى الاهتمام المفرط بأحد البنيتين على حساب الأخرى، كالذي حدث للدّول العربية حيث برزوا في مجال الأدب والنّقد رغم ضعفهم في المجال الاقتصادي والتّكنولوجي، ولا أدّل على ذلك من تنامي الجهاز المصطلحي العربي الذي أضحى

مؤسسةً لغويةً بمقدورها إنتاج مصطلحات مطواعة ذات محمول دينامي يتجاوز في بعض الأحيان المصطلح الغربي ، ولْنأخذ على سبيل المثال مصطلح **الحجاج** حيث لقي إقبالا من لدن المتلقين العرب يفوق المصطلح الغربي **L'argumentation**، ولا يفوتنا أيضا الإشادة بجهود النّاقد محمد مفتاح في مجال ابتكار المصطلحات النّقدية العربية، والتي يأتي على رأسها مصطلح **حقملة** الموازي لمصطلح النّص " وهو نحت من كلمتي الحقيقة والاحتمال، وهذا يعني أنّ النص لا يُعبر عن الحقيقة وحدها، وإنّما يمكن أن يعبر عن الاحتمال، بل والممكن والمستحيل" (مفتاح، 1999، صفحة 32).

3. مصطلح الصّورة الشّعرية في الخطاب النّقدي العربي المعاصر:

أسفرت عملية التّشريح لمسار النّقد العربي المعاصر عن فتوة عهده فضلا عن تبنيه لنظيره الغربي ومُلاحقته عهدا من الزّمن دون الظّفر به، فما كان له – أي النّقد العربي– إلاّ الارتماء في أحضان الآخر وتشرُب مَعينه، رغم أنّ له باعا تُراثيا غنيا بما يكفي لحفظ ماء وجهه وإغنائه – لو أحسن التّعامل معه– عن مذلة الاستيراد الثقافي؟!.

فكانت النّتيجة أن فتح النّقد العربي المعاصر صدره لكلّ دخيل وافد على أنّه المثال المحتذى والمهدي المنتظر؟؟. وقد نجم عن هذا الاتصال الثّقافي اللامشروط تسريح الجمارك الحدودية وتغييب دورها بحجة أنّ الرّقابةَ عدمُ ثقة، وعرقلة لبلوغ العالمية الثقافية المثالية في الاستيراد والتّصدير!؟.

ومن بين الرّوافد الفنّية الوافدة من الشاطئ الآخر نجد **الصورة الشّعرية** الموقع عليها – غربية منشأها–، فهي قبل كلّ شيء أحد تجلّيات المد **الرّمزي** الكثير الاعتماد على تقنية التّصوير الشّفاف / الخيال في الشّعر، وهذا لا يعني بشكل أو بآخر خلو تراثنا الشّعري من فنّيات التّصوير والخيال!، فقد أشار الجاحظ **(159– 255هـ)**– على سبيل المثال– إلى أنّ " الشعرَ صناعةٌ وضرب من النّسيج وجنس من التّصوير" (أبو غثمان، 1970، صفحة 523)، كذلك نوّه حازم القرطاجني **(608– 684هـ)** إلى دور الخيال في انبثاق الصور الشعرية.

لم يخل شعرنا القديم من التّصوير الفنّي، ولم يبلغ كذلك أوجّه وكماله، فقد حال دون بلوغه الذّروة الهرمية في هذا الأفق الفنّي عدة أسباب منها:

العناية الّتي حظي بها **عمود الشّعر**: فلم يكن هذا المقدس المُحاط بالشهب يسمح لخيال الشّاعر السّيرَ ميلا واحدا خارج المألوف أو الموروث؟؟.

ورغم تبني العديد من الشّعراء **كبشار بن برد** و**أبي تمام** و**البحتري** فكرة تحطيم صنم **عمود الشّعر** وتقويض مملكته المصطلحية (النظم – التأليف – الروي – القافية – المقدمة الطللية...)، إلاّ أنّ التّشيع لهذا الأخير وإحاطته بعناية إله الشّعر جعل مُرادهم كالمولود الموؤود يخرج إلى الوجود حيا ثم يوأد قبل الاستمتاع بمناغاته.

لقد كان النقد آنذاك يتنفس في جو كلاسيكي بحت، فكلّ ما ندّ عن قوانينه أو رُؤاه أو قاموسه المصطلحي استُهجن ورُفض، لذا لم يكن الخروج عن الألوف بالأمر الهين والمستساغ.

نستشف من آراء جمهرة النّقاد المحدثين قدم عهد النّقد العربي بالصورة الشعرية من حيث التّشريح الفنّي والدّلالي، غير أن الّذي خسف عنهم توليفها الاصطلاحي في شكله الحديث وهذا ما ذهب إليه الدكتور نعيم اليافي في قوله " النقد العربي بلا شك قد ترجم المصطلح ذاته عن اللغة الأوروبية ونقله إلى مجاله في جملة ما نقل دون أن يقف على مختلف دلالاته ومشكلاته" (جمعة البيطار، 2010، صفحة 49).

يبدو من ظاهر الحديث أنّ نعيم اليافي راح في غمرة دراسة تلافيف المصطلح النّقدي إلى نفي **الصورة الشّعرية** من نقدنا العربي مَحمُولا ومصطلحا، ولو توقف الأمر عند إشارة نعيم اليافي القابلة للتّأويل لهان الأمر، فقد ألفينا النّاقد عبد الرحمان نصرت لا يتحرج في التّحامل على النّقد العربي وخصوصا القديم منه، حيث يَنْسِفُ مُصطلح صورة من النّاموس العربي برُمّته، في حين ينتصر للشّاطئ الآخر، ويُشيد بفضل عاريته علينا فيقول " إنّ مصطلح الصورة من المصطلحات النقدية الوافدة التي ليس لها جذور في النقد العربي" (جمعة البيطار، 2010، صفحة 48).

لم يُقدّم نصرت أدلةً ناجعةً تُعضّد قوله فقد ظلّ رأيه حبيس الارتجال؛ وبعيدا عن هذه الرّعونة الصوفية الّتي تتطلب الكف الرّجعي ابتغاء طيّ السّجل عنها، يَضع الدكتور جابر عصفور بين أيدينا شهادةً حيةً لا تخلو من البّوح عن الوشيجة المُتلاحمة بين **الصّورة الشّعرية** ونقدننا القديمّ؛ ذو الدور الفّعال في تعاطي الصّورة وتكريسها ظاهرةً فنّيةً ومصطلحية قابلةً للتّكييف والتّعديل وفق السائد الفنّي والنّقدي من كل عصر حيث يقول " لقد عالج نقدنا القديم ((قضية الصّورة الفنّية)) معالجةً تتناسب مع ظروفه التّاريخية والحضارية" (عصفور، 1992، صفحة 08)، تلاه وتواءم معه رأي النّاقد محمد حسن عبد الله الّذي نافح عن أصالة الصّورة فنيا ومصطلحيا، إذ جعلها تستوي مع الشّعر مَنْبَتًا ويتجلى ذلك في قوله " إنّ التعبير بالصورة هو الخاصية الأساسية منذ تكلم الإنسان البدائي شعرا، وهذا حق بلا تحفّظ" (جمعة البيطار، 2010، صفحة 49).

اتخذ جابر عصفور من النّقد العربي القديم مُنطلقا له في دراسة الصّورة الفنّية لدى الشّعراء المحدثين، فقد آبه لاتساع قضاياها وتعمق طرحها إلى درجة أنّه يُضاهي بين صنيع النّقاد المتقدمين والمتأخرين في مجال الصّورة، كما ردّ اختلاف صيغتها الاصطلاحية بين هؤلاء النّقاد إلى الظروف التّاريخية والحضارية، فلكلّ عصر مصطلحاته الرّائجة والمُسيطرة على ساحته النّقدية، ثمّ إنّ جابر عصفور جعل **الصّورةَ الفنّيةَ** مُقابلا لمصطلح **الصّورة الشّعرية** الّذي عُدّ بديلا للمصطلح الأجنبيIMAGINATION، وذلك ابتغاء تقريب المسافات وسدّ الفجوات بين ماضي النّقد وحاضره الهجين والمزدحم، والمهم عند جابر عصفور أنّ **الصّورةَ الفنّيةَ** هي المدار القار والمستمر في الشّعر، فقد تُسهم التّحديثات المَفهمية للشعر ونظرياته في تغير مصطلحها، ولكنّ الاهتمام بها يظلّ غير مصروف مادام العطاءُ الشّعري مُتواصلا ومَشدودا بحركة نقديّة تُواكب إبداعاته، وتُجاريه بتحديثات اصطلاحية. (عصفور، 1992، صفحة 08/07)

تتجلى أهمية **الصّورة الشّعرية** بالنّسبة للنّاقد المعاصر في كونها مدارا مانحا لفرص التّوغل في الخطاب الشّعري، وإدراك جزيئاته الحسيّة و**الرّمزية**، كما تفتح له آفاقا جديدةً تُمكّنه من احتناك

التّجارب في ميدان الشّعر، وعليه تغدو **الصّورةُ الشّعريةُ** مُحصلةَ وعي ومتعة وخبرة مصطلحية وفنية في الآن نفسه.

يُلّح الدكتور جابر عصفور على ضرورة تسلح كلٍّ من النّاقد والشّاعر بجزيئات الخيال نظرا لقدرتها على مدّ باع **الصّورة الشّعرية** وتعديد سُبل التّفاعل بها ومعها، فيزداد نشاط المخيلة بحيث تصبح قادرةً "على تكوين صورة ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس. ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد الاستعادة الآلية لمدركات حسية ترتبط بزمان أو مكان بعينه، بل تمتد فاعليتها إلى ما هو أبعد وأرحب من ذلك؛ فتعيد تشكيل المدركات وتبني منها عالما متميزا في جدته وتركيبه، وتجمع بين الأشياء المتنافرة والعناصر المتباعدة في علاقات فريدة، تُذيب التنافر والتباعد، وتخلق الانسجام والوحدة" (جمعة البيطار، 2010، صفحة 13).

إنّ ارتباط الشعر بالخيال تلك الملكة التي بمقدورها خلق ولملمة الشتات ومصالحة الأضداد، هو الّذي خوّل **الصّورةَ الشّعريةَ** منزلةَ الرّيادة فنا ومصطلحا في الشّعر الحديث حيث زادته متعةً فنّيةً فأضحى التّجديدُ المتفردُ موسوما بها.

فلا غرو أن نعتبر الخيال الشّعري " نشاطا خلاقا (...) يستهدف أن يدفع المتلقي إلى إعادة التّأمل في واقعه، من خلال رؤية شعرية" (عصفور، 1992، صفحة 14)؛ فعندما نصل إلى هذا المستوى الفنّي الرفيع **للصّورة الشّعرية** يقول **جابر عصفور**:" فإنّنا لا نفكر في الدلالات العربية القديمة للكلمة بقدر ما نفكر– مثلا– في الكلمة الأجنبية (IMAGINATION) التي تُبرِزُ– على مستوى الاشتقاق– العلاقة الوثيقة بين الخيال والصورة الفنّية" (عصفور، 1992، صفحة 14).

4. خاتمة:

أفضى البحث عبد الدّراسة والتّطارح إلى نتائج جمام نذكر منها:

- أتت إشكالية المصطلح النّقدي على كثير من المسائل أهمها وأخطرها انصهار المشروع الفكري العربي في نظيره الغربي، والوقوع تحت سطوته في إطار الغزو الثقافي الناتج عن

معرض الافتتان بالآخر/ الغرب، ممّا أدى إلى صيحات مُتعالية تُحذّر من مغبة الانسلاخ الحضاري، ذلك أنّ المشروغ الثقافي الغربي تعدّت نواياه المبيتة بنظريه العربي إلى المسخ بدلا من أن يكون نسخة عنه.

والحقيقة أنّ ذلك لم يحدث فقد أخذت إشكالية المصطلح النّقدي العربي في الانفراج بعد أن بلغت ذروة التأزم، وكما يُقال رب ضارة نافعة وإذا تأزمت انفرجت؛ كما أنّ الدّارس حينما يمعن النظر في إشكالية المصطلح يجدها متمخضة قبل كلّ شيء عن المبالغة في التّهويل وليس أدلّ على ذلك من أنّ تعدد المصطلحات العربية البديلة للمصطلح الغربي وسعت إشكالية المصطلح بعيدا عن العبث، بل أنبأت عن ثراء اللغة العربية، وكذا قوة البنية الفوقية المتسلحة بنقاد مصطلحيين امثال محمد مفتاح عبد الملك مرتاض، عبد الله الغذامي ... .

كذلك العودة إلى الشاطئ الآخر واجبة فقد عرف هو الآخر إشكالية المصطلح فعلى سبيل المثال ذهب المؤتمر الدولي للسمياء (1969) أدراج الرياح إذ لم يستطع إرساء مصطلح Sémiotique كطرف وحيد للمعادلى السميائية = السيميولوجية، حيث ظلّ مصطلح Sémiologie قارا في حقل المصطلحات الطبية (علامات الأعراض المرضية)، علاوة على ذلك ظهرت عدّة كتب نهاية السبعينيات تتبنى مصطلح السيميولوجية يأتي على رأسها كتاب Qu'est ce que la sémiologie للكاتب برنار توسان B. Toussaint .

- تُحيل المصطلحات المعدودة المرصودة للمصطلح الغربي **Imagination** على دقة ورصانة الجهاز المُصطلحي لدى الباحثين العرب.
- عمل النقاد العرب على توطين مصطلح **Imagination** الذي انتقل إلى البيئة العربية في إطار الاستيراد الثقافي الغربي، ومن بين المصطلحات الرائجة التي كانت خيرَ بديل للمصطلح الغربي نجد الصورة الشعرية، فقد لقي هذا المصطلح المرن والمطواع والحامل لدلالة العلمية إقبالا منقطع النظير كون العرب منذ الأزل يحتفون بالشعرية، كما اتّخذوا من الشعر ديوانا لهم.

5. قائمة المراجع:

01/ الجاحظ أبو عثمان. (1970). *الحيوان* (الإصدار 2). (عبد السلام محمد هارون، المحرر) القاهرة، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأبناؤه.

02/ بن ابراهيم نحلة علي. (2010). *إشكالية المصطلح في الفكر العربي، الاضطراب في النقل المعاصر للمفهومات* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: بيسان للنشر والتززيع.

03/ جابر عصفور. (1992). *الصورة الفنية (في التراث النقدي والبلاغي عند العرب)* (الإصدار 3). بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.

04/ عبد الغني بارة. (2005). *إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر*. القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

05/ محمد مفتاح. (1999). *المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي* (الإصدار 1). المغرب: المركز الثقافي العربي.

06/ هدية جمعة البيطار. (2010). *الصورة الشعرية عند خليل حاوي* (الإصدار 1). الإمارات العربية المتحدة: دار الكتب الوطنية هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.

07/ يوسف وغليسي. (2007). *مناهج النقد الأدبي* (الإصدار 1). قسنطينة، الجزائر: جسور للنشر والتوزيع.